



خَطْرُ
الكتابة
بالعامية

١١٥٥٥٥



تاليف

محمد اسماعيل ان مقدم

نَحْطُ الْكِتَابَةَ بِالْعَامِيَّةِ


تَالِيْفُهُ

مُحَمَّدُ اسْمَاعِيلُ بْنُ مِقْدَامٍ

دَارُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

الإسكندرية - أبو سليمان - شارع عمر - أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٥٠١٣١٥١ المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

راسلونا على صفحتنا على الفيس بوك: «دار الخلفاء الراشدين» 

مُفَرَّقُ الطَّبِيعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتاب: **مُفَرَّقُ الطَّبِيعِ مَحْفُوظَةٌ**

اسم المؤلف: **أبو سليمان ش. عمر**

القطع: ١٧×١٢ سم

عدد الصفحات: ٦٤ صفحة

سنة الطبع: ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع

٢٠١٧/١٧٤١٤م

دار الفجر الإسلامي

الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧ - ٠١١٣٦٥٠٠٦٩٦

دار الفجر الإسلامي

الإسكندرية - أبو سليمان ش. عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

توزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تفضّل ووهب، والصلاة والسلام على سيّد ولدِ آدمَ المبعوثِ من أشرفِ قبائلِ العرب، وعلى آله وصحبه الذين حازوا أعلى الرتب، وجازوا على بحور البلاغة والأدب.

أما بعد:

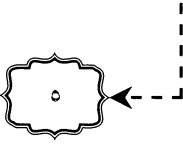
فقد تعددت مظاهر الكيد للغة العربية منذ وقع الاحتلال الغربي للبلاد الإسلامية، وقد شخّص شيخُ العربية العلامة محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ الدافع وراء الحملة على الفصحى، فقال: «منذ استيقظ العالم الأوروبي لنهضته الحديثة، وهو يرى عجباً من حوله، أمم مختلفة الأجناس والألسنة من قلب روسيا، إلى الصين، إلى الهند، إلى جزائر الهند، إلى فارس، إلى تركيا، إلى بلاد العرب، إلى



شمال إفريقية، إلى القارة الإفريقية وسواحلها، إلى قلب أوروبا نفسها، تتلو كتابًا واحدًا يجمعها، يقرؤه من لسانه العربية، ومن لسانه غير العربية، وتحفظه جمهرة كبيرة منهم عن ظهر قلب، عرفت لغة العرب أم لم تعرفها، ومن لم يحفظ جميعه حفظ بعضه، ليقيم به صلته، وتداخلت لغته في اللغات، وتحولت خطوط الأمم إلى الخط الذي يكتب به هذا الكتاب، كالهند وجزائر الهند، وفارس، وسائر من دان بالإسلام، فكان عجبًا أن يكون في الأرض كتاب له هذه القوة الخارقة في تحويل البشر إلى اتجاه واحد متسق على اختلاف الأجناس والألوان والألسنة»^(١) اهـ.

لقد كانت الغاية الأسمى التي رسمها أعداء أمتنا هي إحداث القطيعة بين المسلمين وبين هذا الكتاب المجيد الذي ظلوا يستمدون منه قيمهم ومبادئهم ورؤيتهم للحياة وللوجود.

(١) «أباطيل وأسفار» (ص ١٥٨).



وقد نشرت «الهلال» عام ١٩٣٤ مقالاً عجيباً للدكتور حسين الهراوي، ضمنه تقريراً وقع في يده للجنة العمل المغربي الفرنسية، يقول الدكتور حسين: «فرأيت هذا التقرير يتبع السياسة الاستعمارية، ويصف مقاومة الإسلام، والتقارير السرية التي يرسلها المستشرقون في البلاد المستعمرة إلى حكوماتهم لمقاومة الإسلام؛ لأن رُوحه تتنافى مع الاستعمار، وأن أول واجب في هذا السبيل هو التقليل من أهمية اللغة، وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلية في شمال إفريقية واللغات العامية؛ حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم، ويمكن التغلب على عواطفهم»^(١).

(١) «اللسان العربي والإسلام» للدكتور السيد رزق الطويل (ص ٧٩) نقلاً عن الهلال - عدد يناير ١٩٣٤ (ص ٣٢١-٣٢٨) تحت عنوان: هل ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم؟



ومن مظاهر الكيد للفصحى؛

١- نشر اللغات الأجنبية واعتمادها لغة التعليم؛ بغية السيطرة على العرب، وجعلهم تابعين للاستعمار تبعية مطلقة.

٢- هجر الفصيحة تمهيداً للقضاء عليها، وما يتبع ذلك من فصل العرب عن تراثهم ودينهم.

٣- السخرية من اللغة الفصحى، وتحقير أهلها في المواد الإعلامية الهزلية.

٤- الدعوة إلى اللغة الثالثة أو الوسيطة، أو الفصّعية أو الخنثى على نحو ما قرره عباس خضر، أو «الفصحى المخففة والعامية المشرقة» على نحو ما قرره فرح أنطون.

٥- الدعوة إلى الإبقاء على الفصحى، مع إلغاء الإعراب وتسكين أو اآخر الكلمات.

٦- الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية.



٧- الدعوة إلى تطوير النحو والبلاغة.

٨- اصطناع الشعر المنشور.

٩- تشجيع الأدب الشعبي^(١).

(١) وهذه طريقة غير مباشرة لإنعاش العامية، وتحويل الأدب العربي إلى أدب شعبي متفرق على أساس إقليمي، فيصبح بين أيدينا أدب شامي، وعراقي، ومصري، وحجازي، ونجدي، وجزائري ... إلخ.

وبدلاً من استخراج كنوز الفصحى الأدبية وتحقيقها يتجه الباحثون والدارسون إلى مثل قصة «الزير»، و«عنتر»، و«سيف بن ذي يزن»، و«تغرية بني هلال». وما أحسن ما قال الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رَجْمَ اللَّهِ فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَى الدَّعَاةِ إِلَى الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ: (وكم أحرَجْنَا هؤلاء الدَّعَاةَ حِينَ كُنَّا نَسْأَلُهُمْ عَنِ «أَبِي الطَّيِّبِ» الَّذِي وُلِدَ فِي «الْكُوفَةِ» مِنْ أَرْضِ «العِرَاقِ»... وَعَنَى أَعْدَبَ الْخَانَةَ فِي «حَلَبَ» مِنْ بِلَادِ «الشَّامِ»... وَصَاغَ أَحْكَمَ قَوَائِمِهِ فِي أَرْضِ الْكِنَانَةِ «مِصْرَ»... وَأَعْطَى أَصْدَقَ تَأْمَلَاتِهِ فِي بِلَادِ «فَارِسَ»...)

أهو عراقي، أم شامي؟؟...

أم مصري، أم فارسي؟؟...

وفي أدب أي إقليم يُمكن أن يوضَّح أدبه؟؟.

وليس «أبو الطَّيِّبِ» بِدَعَا فِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُشَارِيهِ فِي هَذَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَدْبَاتِنَا الْأَفْدَاذِ، مِنْ أَمْثَالِ «أَبِي تَمَّامَ»، وَ«الْبُحْتَرِيِّ»، وَ«أَبِي الْعَلَاءِ»، وَمَثَلِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ) اهـ. من «العدوان على العربية عدوان على الإسلام» (ص ٣٦).

١٠- تغريب الأدب.

١١- على أن أخطر هذه المحاور كان الترويج للعامية، ووضع القواعد لها، وتحديد كيفية رسم كلماتها، ونقلها من اللهجة المنطوقة المقصورة على الاستعمال (الوظيفي) في الحياة اليومية إلى اللغة المكتوبة المستعملة في التأليف والبحث والإدارة؛ أي: جعل العامية لغة أدبية بدلاً من الفصيحة.

إن الدعوة إلى العامية لا يمكن أن تكون دعوة بريئة نزيهة، وإنما هي محاولة لاقتلاع الإنسان المسلم من ثقافة أمته وعزله ثقافياً وشعورياً؛ ليسهل تشكيله وإحاقه بأي نموذج ثقافي آخر^(١).

والدعوة إلى العامية زائفة المحتوى، ومعادية من حيث أهدافها:

(١) «الدعوة إلى العامية: المسار والأهداف» للدكتور مصطفى بن حمزة (ص ٢١).



.. أما زيف محتواها: فلأنها تدعو إلى استعمال العامية انطلاقاً من زعم كونها لغة مستقلة عن الفصحى، وما هي في الحقيقة إلا مستوى تعبيرى من مستويات الفصحى، منطوق ومستعمل في الحياة اليومية، وعليه فإن من تحصيل الحاصل الدعوة إلى استعمال المستعمل. وقيمة العامية كاملة في أنها (منطوقة)، وهذا سر مرونتها وحرارتها، فإذا دُوت جمدت، وبات من المحتم نشوء عامية أخرى جديدة.

.. وأما كونها معادية الأهداف:

فإن أنصار الفصيحة لم يجاربوا الدعوة إلى العامية لمجرد مخالفتهم لمحتواها، أو جهلهم بزيفها؛ بل حاربوها لما تضمنره من أهداف معادية للأمة ولدينها وتراثها الإسلامي العربي^(١).

(١) انظر مقالة الدكتور أحمد بن عبد الرحمن بالخير، المنشورة على الشبكة العنكبوتية بعنوان: «في قضية العامية والفصحى: الدعوة إلى استعمال المستعمل».



إن (ثنائية العامية والفصحى) من أكبر المشاكل التي تعرضت لها لغتنا العربية في تاريخنا الحديث، والتي تجسدت في «التبشير» بإحلال الأولى محل الثانية، وادّعى «المبشرون» بالعامية أنها ذات طواعية ومرونة في الفهم، وأنها قادرة على التعبير الكتابي «الأمثل» عما يريده الناطق بها في زعمهم!

«لقد كثر خلط دعاة التغريب في الحديث عن الفصحى والعامية، ومحاولة الادعاء بأن العامية لغة (مستقلة) بذاتها، كالعربية، والحق أن هناك لغةً واحدةً هي العربية، و(لهجة) هي العامية، وأن الفصحى هي اللغة المشتركة بين العرب جميعاً، وأنها هي القوة القادرة المؤهلة للمحافظة على بقاء المستوى البياني بين القرآن واللغة العربية، وأن أخطر الأخطار أن يُمَسَّ هذا المستوى، أو تجري محاولة للانتقاص منه»^(١).

(١) «اللغة» للأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ اللهُ (ص ٢٥، ٢٦).



لقد وُجِدَت العامية منذ العصور التاريخية القديمة «في صورة لهجات يستعملها العامة في بيئات مختلفة، وهم يعرفون أنهم باستعمالهم إياها لا يبلغون المستوى الرفيع الذي يبلغونه بالفصحى؛ ولذلك كانت العامية محصورة في بيئات التخاطب الضيقة التي كانت بيئات منعزلة.

لم تكن العامية ترقى لتكون لغة الأدب أو الثقافة أو الدواوين الرسمية، ولم تكن الدروس تُلقى بها في حلقات العلم^(١)؛ ولذلك لم يكن لها خطر على الفصحى

(١) من طريف ما يذكر في هذا الموضوع ما سطره الشوكاني في «البدر الطالع» (١٣٨/٢، ١٣٩) في أثناء ترجمته للأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ، قال الشوكاني: قد رأيت في المنام في سنة ١٢٠٦ وهو يمشي راجلاً وأنا راكب في جماعة معي، فلما رأته نزلت وسلِّمْتُ عليه، فدار بيني وبينه كلام، حفظتُ منه أنه قال: «دَقِّقِ الإسناد، وتأنَّق في تفسير كلام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». فخطر ببالي عند ذلك أنه يشير إلى ما أصنعه في قراءة البخاري في الجامع، وكان يحضر تلك القراءة جماعة من العلماء، ويجتمع من العوام عالم لا يُحْصون، فكنيت في بعض الأوقات أفسر الألفاظ الحديثة بما يفهم أولئك العوام الحاضرون، فأردت أن أقول له: إنه يحضر جماعة لا يفهمون بعض الألفاظ العربية... فبادر وقال قبل أن أتكلم: «قد علمتُ أنه يقرأ عليك جماعة وفيهم عامة، =



في تلك الأيام»^(١).

وكان لكل من العامية والفصحى دورٌ في التعبير،
تؤديه في ميدانها: أمّا العامية المحكية فكان يُملئها الانفعال
الآنيُّ بالمواقف اليومية العادية، وأمّا الفصحى المكتوبة
فكان يملئها تمليُّ الفكرة والانفعال المركز بها.

=ولكن: دقق الإسناد، وتأنق في تفسير كلام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
ثم سألته عند ذلك عن أهل الحديث: ما حالهم في الآخرة؟ فقال: بلغوا
بحديثهم الجنة، أو: بلغوا بحديثهم بين يدي الرحمن -الشك مني- . ثم بكى
بكاء عاليًا، وضمني إليه، وفارقتي. فقصصت ذلك على بعض من له يد في
التعبير، وسألته عن تأويل البكاء والضم، فقال: لا بد أن يجري لك شيء مما
جرى له من الامتحان. فوقع من ذلك بعد تلك الرؤيا عجائب وغرائب
كفى الله شرها. اهـ.

(١) «اللغة العربية في عصر العولمة» للدكتور أحمد بن محمد الضبيب
(ص ٢١٤).



مقارنة بين الفصحى والعامية



الدعوة إلى العامية كبديل للعربية مؤسّسة على خطأ معرفي كبير، هو توهم التكافؤ بين العامية والفصحى، واستوائها معها في الإفصاح عن كل المعاني من غير إخلال بشيء منها ولا توضيحٍ بأكثرها.

إن توهم إمكان تفريغ معاني الفصحى ودلالات ألفاظها في لهجة عامية أشبه ما يكون بمحاولة تفريغ بحر محيط في كأس صغيرة، إن لم نقل: إنه محاولة قاصدة وغير معلنة للتضحية بكل المعاني والمضامين الدينية والحضارية التي تحملها الكلمة العربية مثلما تحمل البصمة الوراثية كل خصائص صاحبها^(١).

(١) انظر مقالة الدكتور مصطفى بن حمزة «الدعوة إلى العامية: المسار والأهداف»



وفيما يلي نعقد مقارنة تجسد خطر العامية على
الدائقة اللغوية، وعلى استمرار اتصالنا بتراثنا، وعلى
هُويتنا الناطقة:

* الفصحى - لأنها لغة حديث وكتابة - أداة محكمة،
قواعدها مضبوطة، وسننها واضحة، ونطقها قويم،
ومراجعها الموثقة لا يُحصيها العُدُّ.

* أما العامية - فلأنها لغة تخاطبٍ محكيَّةٍ فحسبٌ - فإنها
قاصرة قصورًا ذاتيًا، مفتقرة إلى القواعد والضوابط والنظم
التي تصونها من الفوضى، وليس لها مرجع يُرجع إليه، كما
أنها مضطربة في أساليبها ومعاني ألفاظها، وإملاؤها بدائي
ليس له نظام مُجرب، وفي الكتابة بها مشقة بالغة، ولا توفر
وقتًا ولا جهدًا.

وما يجده الدعاة إلى العامية من الصعوبة في اختصاص
اللغة الفصيحة بالعلوم والفنون واستثمارها بالكتابة،



سيجدونه في نقل العلوم إلى اللغة العامية، بل يجدون في الثاني ما هو أشد من الأول.

* والعامية فقيرة كل الفقر في مفرداتها، التي لا تحتوي أكثر من الكلمات الضرورية في الحديث العادي، ولفقرها وضآلتها لا تكاد ألفاظها تتجاوز دائرة الحاجات الضرورية المادية، وليس فيها من الكلمات ما يصلح للاصطلاحات العلمية أو الفنية، ويليق بالمعاني الأدبية، ولا نظام لمبانيها، ولا قانون لتراكيبها؛ لأنها فاقدة القواعد الصرفية والنحوية. ومن ثم فإن العامية عاجزة كل العجز عن منافسة الفصحى، بله أن تحل محلها، وعاجزة أشد العجز عن معالجة الموضوعات الرفيعة في الحياة العلمية والأدبية والاجتماعية الراقية، ولا يمكن أن ترتقي بالمستوى الفكري الذي نطمح بالوصول إليه، ولا يمكن أن يُعَوَّل عليها في التعبير عن المعاني الدقيقة، ولا عن حقائق العلوم والآداب والإنتاج الفكري المنظم.



من أجل ذلك فشلت العاميةُ فشلاً ذريعاً في محاولات اعتمادها لغةً كتابةً وتدوين، وعجزت كل المحاولات المستميتة من المستشرقين وأذناهم عن أن تجعل من اللهجات العامية في البلاد العربية شيئاً مذكوراً.

* والعامية - في أي لغة - لا تثبت على حال واحدة، وتتطور باستمرار في أصواتها ومفرداتها ودلالاتها، وتتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص وطبقات الناس. فعامية اليوم ليست كعامية الأمس، وهي غداً غيرها اليوم.

* وللعامية لهجات كثيرة^(١) متفاوتة بين البلاد العربية، بل متفاوتة داخل البلد الواحد، أما الفصحى فإن لغة المتكلمين والكاتين بها لغة صحيحة متوحدة على اختلاف البلدان والمقاطعات، والأزمان والأعراق.

(١) عدَّ بعض الباحثين لهجات قارة آسيا فبلغت (٩٣٧) لهجة، أما لهجات قارة إفريقية فقد بلغت (٢٧٦) لهجة.

* والعامية قرينة الأمية^(١)، أما الفصحى فلها ميراثها الزاخر بالروائع والكنوز، المتشعبُ بضروب العلوم والآداب والتشريع والفنون، وهي مَدْرَجَة التعليم ولسانه المبين، وهي منارة التنوير والترقي، وحافظة التراث، ولغة الخطاب الثقافي، وعمود من أعمدة هويتنا.

* واللهجة العامية الدارجة شيء طارئ عارض، بخلاف الفصحى التي هي امتداد طبيعي أصيل للثقافة الإسلامية العربية العريقة.

* إن العلم - بوصفه تراث الإنسانية الممتد - يُتم فيه اللاحق ما بدأه السابق، ويبني عليه، وإن الدعوة إلى العامية مدعاة إلى نسف التراث العربي الضخم الذي دُون بالفصحى، واعتماد العامية سيتهي بوأد ملايين الكتب

(١) ومن شأن (الثنائية اللغوية) أن توسّع الفجوة بين العوام الأميين، والخواص المتعلمين؛ فيزداد احتجاب العوام عن المعارف والرفق والشؤون العامة، وسبب ازدهار العامية هو فشو الأمية، ومن هنا فإن نشر التعليم يجبي العربية.

العربية، وقطع صلة الخلف بسلفهم، وإعاقه الأواخر عن البناء على أساس الأوائل.

* لقد مَنَّ اللهُ على العرب بالوَحدة اللغوية التي أَلْفَتْ قلوبَهُم على دين واحد، وذلك حين قَيَّدت لُغَةُ القرآن لهجاتِ العرب^(١)، بل مَحَّتْهَا بالرغم من فصاحتها وفطريتها، ثم رَدَّت الجميع إلى لغة واحدة هي لغة قريش،

(١) ولقد أدى اختلاف هذه اللهجات في الماضي إلى وجود كثير من المشكلات والنزاعات، فقد جاء في التراث العربي أن رجلاً من قريش ذهب في رحلة إلى (ظفار) اليمن لزيارة أحد ملوك حِمَيْر، ولما وصل القرشي إلى (ظفار) توجه إلى قصر الملك، وكان قصر الملك مشيداً فوق ربوة عالية، ولما وصل القرشي إلى قصر الملك استقبله استقبالاً حسناً، ورحب به ترحيباً كبيراً، ثم إنهما خرجاً معاً يتجولان في حديقة القصر التي كانت تقع على حافة الربوة، وبعد أن انتهى الملك وضيفه من التجوال في الحديقة، أشار الملك إلى القرشي بقوله: ثب - أي اجلس (بلهجة الحميريين)، ولكنها تعني: اقفز (بلهجة قريش) -، فما كان من الرجل القرشي إلا أن قفز من فوق الربوة، استجابة لأوامر ملك حِمَيْر، فلقي مصرعه على الفور! فُبِهت الملك مما حدث، وحزن حزناً شديداً لما أصاب الرجل القرشي، وقال كلاماً أصبح مثلاً يتناقله الناس جيلاً بعد جيل: (مَنْ زار ظَفَارَ، حَمَّرَ)، أي: إن الذي يزور ظفار يجب عليه أن يتقن لهجة حِمَيْر.



وإن أي دعوة إلى استعمال العامية بدلاً من العربية هي طعنة في قلب الأمة، وكفر بنعمة اللسان العربي المبين، وتمزيق لوحدة العرب والمسلمين، وعليه فإنها لم تكن يوماً دعوة إصلاح، ولن تكون، وإنما هي خطة تدميرية نسجها أصحاب الأهواء، واستروح لها العملاء، وانساق وراءهم المقلدون، وإن هدفها البعيد هو انقراض لغة القرآن المجيد، ومحوها من الوجود.

إن الدعوة إلى العامية، ونقل العلوم إليها، سوف يفرق بين أهل الأقاليم في معارفهم وآدابهم، ويباعد بين أفكارهم، وتنقلب الأمة إلى أمم مختلفة لا يفهم أهلها لغة بعض، وهم أهل شريعة واحدة، وفي سلطان حاكم واحد، وكل واحد منهم في حاجة إلى معونة الآخر في أقل الضروريات وأجلّها^(١).

(١) «مستقبل اللغة العربية» (ص ٦٣).



والواقع أن اللهجات العامية تختلف من مدينة إلى مدينة، بل من قرية إلى قرية، وربما تكون المسافة بينهما عدة كيلو مترات.

والواقع يشهد -أيضاً- أن العرب في مؤتمراتهم ووسائل إعلامهم لا يفهمون بعضهم كما ينبغي إلا عن طريق الفصحى التي تربط بينهم برباط وثيق؛ أما اللهجات المحلية فيصعب عليهم التفاهم بها، فالشامي يصعب عليه أن يفهم لهجة المغربي، والعكس صحيح، وبالفصحى يفهم الجميع.

يقول الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رَحِمَهُ اللهُ:
(وَلِنُسَائِلُهُمْ عَنِ الْعَامِيَةِ الَّتِي يَرِيدُونَ أَنْ نَأْخُذَ بِهَا: أَفَنَأْخُذُ
عَامِيَةَ «العراق» الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا «العراقيون» وَحَدَهُمْ؟
أَمْ نَسْتَعْمَلُ عَامِيَةَ «الجزائر» الَّتِي تُسْتَغْلَقُ عَلَى أَبْنَاءِ
العروبة فِي كُلِّ مَكَانٍ؟



أم نُوْثِرُ عامية «اليمن» أو «مصر» أو «الشام» أو
«السودان»؟!.

وهب أننا أخذنا عامية «مِصْرَ» مثلاً، أفنختار عامية
«القاهرة» أم عامية «الصَّعِيدِ»؟ وبينهما من الفرق ما هو
أشدُّ بُعداً من الفرق بين الفصحى والعامية...^(١).

(١) «العدوان على العربية» (ص ٢٥).



﴿ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾



أرأيت من آتاه الله ثوبًا جميلًا سابغًا سليمًا متينًا، يؤدي
وظيفة ستر بدنه، وحمايته، وزينته على أحسن وجه، فإذا به
ينبذه وراء ظهره، ويطره أرضًا، ثم يعدل عنه إلى أسمالٍ
بالية ممزقة مهترئة متنافرة الألوان، رديئة الخامات، فيضم
رقعة منها إلى أخرى ليصنع منها ثوبًا مرقعًا يستر به جسده!
يُقضى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حَسَنًا ما ليس بالحسنِ

إن هذا المعنى نفسه هو الذي عناه شاعر النيل (حافظ

إبراهيم) وهو يدحض دعاوى أنصار العامية وخصوم

العربية، ويقول على لسانها:

أيهجرنى قومي- عفا الله عنهم-

إلى لغة لم تتصل برواة



سرت نُوثة الإفرنج فيها كما سرى

لعاب الأفاعي في مسيل فراتٍ

فجاءت كثوب ضَمَّ سبعين رقعة

مشكلة الألوان مختلفاتٍ

أليس في هذه الدعوة المشؤومة إلى استبدال العامية بالفصحى عزلٌ للعرب بعضهم عن بعض، وحرمانهم من وسيلة التفاهم والتواصل والتلاحم، والتلاقي الفكري والعلمي الذي تيسره العربية الفصحى؟!

يقول الدكتور أحمد الضبيبي:

(لكن خطر العامية يظهر عندما تتجاوز مستواها الاجتماعي في التخاطب، لتحل مكان الفصحى في المدرسة والدواوين الرسمية ووسائل الإعلام، أو تكون أداة للكتابة في الشعر والنثر؛ عندئذ تصبح العامية طاردة للفصحى عن مواقعها الطبيعية، وفي ذلك خطر يهدد الأمة بالتمزق اللغوي طبقاً لكل لهجة، إذ إن كل لهجة سوف



تتحول - مع مرور الزمن - إلى لغة، كما حدث عند أمم أخرى. وفي هذه الحالة تصبح كل بيئة لهجية كياناً مستقلاً عن البيئات الأخرى، له لغته التي لا تفهم في البيئات الأخرى، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على وحدة الأمة. كما أن هذه اللهجات إذا ما استقلت فسوف يكون لها أديها ولغتها الرسمية، التي تتعد بها عن لغة التراث العربي الإسلامي المكتوب بالعربية الفصحى، وفي ذلك انقطاع عن الإرث الحضاري والتاريخي لهذه الأمة).

ثم ينبّه إلى أن: (تشجيع العامية لا يقل خطراً عن تشجيع اللغة الأجنبية، فأى موقع تُطرد منه الفصحى لتحلها إحداها بدلها يُعدّ انهزاماً للفصحى، وبالتالي يشكل خطراً على الثقافة العربية، ويسهم في إضعاف الأمة وفقدان هويتها أو تمزيقها)^(١).

(١) «اللغة العربية في عصر العولمة» (ص ٢١٤، ٢١٥).



إن هيمنة التعدد اللغوي واللهجي على المشهد اللغوي العربي يهدد بانحسار اللغة العربية، وإعدام وظيفتها، وغياب تداولها.

إن الانحياز إلى الفصحى والانتصار لها في مواجهة العامية خيار يفرضه الشرع والعقل والواقع، ويزكيه الإخلاص للحقيقة والصالح العام للأمة.



ثالثة الأثافي^(١) ومصيبة الدهر



لقد نَشِطَتِ الأيدي الآثمة، تعمل على هدم هذه اللغة،
تارة في السر، وأخرى في العلن.
وهبَّتِ النِّيَّاتُ المشبوهة تكيد لها تحت ستار التجديد
والإصلاح...
وكانت أولى هذه الدَّعَوَاتِ الدعوةُ إلى نبذ الفصحى،
وإحلال العامية محلَّها، وجعلها لغةَ الكِتَابِ كما هي لغة
الخطاب^(٢).

(١) الأثافية: حجر مثل رأس الإنسان، وجمعها أثافيٌّ بالتشديد، ويجوز التخفيف، وتُنصب القُدور عليها. وثالثة الأثافي: القطعة من الجبل يُجعل إلى جانبها اثنتان، فتكون القطعة متصلة بالجبل.
قال خُفَّافُ ابنِ نُذْبَةَ:

وإن قصيدة شنعاء مني إذا حَضَرَتْ كثالثة الأثافي
ومعنى قولهم: رماه الله بثالثة الأثافي: رماه بالشر كله.

(٢) انظر: «العدوان على العربية عدوان على الإسلام» للدكتور عبد الرحمن الباشا (ص ٢١).



وقد تولى كبرها فريق من المستشرقين، كـ«ولهم سبيتا»^(١)، و«ويليم ويلكوكس»، اللذين دَعَوَا إلى العدول عن لغة الكتابة الفصيحة إلى العامية المحكية الدارجة في التعبير الكتابي.

وقد اقترنت هذه الدعوة الأثيمة بأسماء المستشرقين الذين كانوا يكيّدون للفصحى، والذين كانوا على وعي كامل بأهمية اللغة وقدرتها على الحفاظ على هوية الأمة من خلال ما تحمله الكلمة من بصمات حضارية وثقافية تصوغ الوعي وتحمي الخصوصية، ولكنهم كانوا - في الظاهر - يتذرّعون بذرائع واهية لتسويغ دعوتهم، وما هي في حقيقتها إلا واجهة لعدوان مبيت ضد الفصحى.

هكذا بدأ الصراع أجنبياً عربياً، ثم لم يلبث أن تحول إلى صراع عربي عربي، حين تلقف هذه الدعوة أذنابهم

(١) وقد رأى «سبيتا» أن اتخاذ العامية لغةً للكتابة بالنسبة إلى مصر وشعبها «مسألة حياة أو موت».



ووكلاؤهم من بني جلدتنا ذوي المقاصد التأميرية
الواضحة^(١)، وإلى هذا أشار (حافظ إبراهيم) في قوله على
لسان الفصحى:

أيهجرتني قومي- عفا الله عنهم-

إلى لغة لم تتصل برواة

سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى

لعاب الأفاعي في مسيل فرات

المنحازون إلى اللسان العربي الفصيح كُثر، تنوعت

دوافعهم بين قومي عربي يتعصب لها، وأديب مُحِبُّ لها،

وباحث لغوي بصير بضعف العامية وعجزها^(٢).

(١) فمنهم الراغبون في تمزيقنا تمهيداً لاحتوائنا لِقَمًا صغيرة، ومنهم الطائفون،
ومنهم الشعوبيون الذين يكرهون العرب والعروبة، ومع كون لسانهم
عربيًا لكن كان حالهم كما قال المتنبي:

عربي لسانه، أعجمي رأيه، فارسية أعياده

(٢) بل كان منهم بعض المستشرقين الذين سحرت عقولهم العربية الفصحى،
فوقعوا في غرامها، وعشقوها عشقًا جمًّا، فساهموا في إغنائها، وتعبوا من
أجلها، أمثال: نيكلسون، ونلليو، وبلاشير، وبراون، وأريبي، ورايت،
وغيرهم.



لكن الحقيقة التي لا تُنكر أن أول من اهتم بالدفاع عن الفصحى وناضل في سبيلها هم أهل الدين؛ لما يدركون من الارتباط الوثيق بين العربية والإسلام.

ولذلك فإن قضية الدفاع عن العربية في مواجهة استبدال العامية بها قضية إسلامية، وكذلك الدعوة إلى العربية تعلمًا وتعليمًا وكتابة وخطابة جزء أصيل من الدعوة إلى الإسلام.

وكما أنه لا يمكن دراسة الفيزياء دون دراسة الرياضيات، فكذلك لا يمكن الدعوة إلى الإسلام بدون دراسة العربية الفصحى؛ لأنها أداة فهمه وتبليغه.

ولا يُعرف عن عالم مخلص أنه استروح للدعوة إلى العامية أو تسامح معها، بل أنكرها العلماء على بكرة أبيهم - إلا من شذ - ووقفوا لها بالمرصاد.

لقد بدأت الدعوة إلى العامية بمحاربة الفصحى في الخطاب المحكي من خلال المسرحيات العامية التي

هجرت الفصحى وتمادت في استعمال العامية، ثم انتقلت الظاهرة إلى مجالات «الفن»، ثم انتقلت إلى مجال الكتابة من خلال الصحف والكتابات الأدبية التي كُتبت بالعامية على استحياء في البداية، وبجُرأة في النهاية.

إلى أن شاعت الكتابة بالعامية في الصحافة الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي بصورة غير مسبقة.

لكن «أم المصائب» وكارثة الكوارث تلك الظاهرة الخطيرة التي نبغت في زماننا، وإن لم يُتدارك أمرها، وتوأذ في مهدها، فسوف تفتح باب شر مستطير، ولا يعود مكمّن الخطر فيها إلى أنها تعتمد العامية لغةً للكتابة فحسب، بل لأن الذين سقطوا في هذه الهوة في هذه المرة قوم يوصفون بأنهم «دعاة إسلاميون»، يُفترض أنهم حُرّاس الهوية، وتُعتقد عليهم الآمال في الذود عن حياض الفصحى، والضرب على يد الدعاة إلى الكتابة بالعامية، فإذا بهم ينضمون إلى خندق أعداء الفصحى، وهم لا يشعرون.

لقد طوعت لهؤلاء «الدعاة الإسلاميين» أنفسهم أن يؤلفوا باللغة العامية المتبدلة كتباً دعوية سعياً وراء التسهيل المزعوم، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ويحسبونه ﴿هَيْنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، ولا يشعرون بالذنب بل بالفخر بمسلكتهم الرديء، ولا يدركون أنهم صاروا بهذا قرّة عين لأعداء الإسلام وخصوم الفصحى لغة القرآن العظيم.

وما أتي القوم إلا من جهلهم بمكانة الفصحى، وعواقب هجرها، وغفلتهم عن دراسة «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها»، وتقصيرهم في استبانة «سبيل المجرمين» الذين طالما حاولوا فرض العامية واستبدالها بالفصحى لكنهم فشِلوا في كل مرة، أما اليوم فها هم أولاء بعض حراس الحصون يفتحون لهم أبوابها، ويمهدون لهم الطريق لاقتحامها، قائلين: ﴿إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾، حتى كأن الفصحى تتكلم، وتثنُّ من تناقضهم وتأمل:



فإما أن تكون أخي بصدق

فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فاطرُحني واتخذني

عدواً أتقيه ويتقيني

وذلك كي تصير الحدود واضحة بين الصديق والعدو،

وفاصلة بين من ينصر الفصحى، ومن يحاول هدمها.

كانت العامية موجودة كلغة محكية في عصورنا

السالفة، لكن علماءنا لم يسمحوا لها بالولوج إلى مجال

الكتابة والعلم، وبقيت الفصحى لغة العلم الشرعي

والعلم الديني والثقافة.

وانطلاقاً من المبدأ التجاري النفعي القائل: إن

«الزبون» دائماً على حق؛ كسر بعض الدعاة القاعدة،

وراحوا يساهمون في «الانحطاط» اللغوي، وقتل الذوق

العربي السليم، وبدلاً من أن يرتفعوا بالناس إلى مدارج

العلم ومراقبي الفصحى؛ صاروا ينزلون إليهم وبهم إلى دركات العامية.

إن الواجب على العلماء والدعاة تحدي الأمر الواقع، والتصدي لاستفحال العامية، وليس الانبطاح أمام طغيانها.

وطريق النهضة والرقى أن تنهض بمن هو دون، لا أن تهبط بمن هو أعلى. وقد قيل للرافعي: (انزل بأسلوبك إلى مستوى القراء)، فقال: (ولم لا يرتفع القراء إلى مستوى ما أكتب؟!). وقيل لأبي تمام: (لم لا تقول ما يفهم؟) فقال: (ولم لا تفهم ما يقال؟). فإذا نزلنا إلى حضيض العامية حكمنا بالإعدام على تراث مجيد وعريق، وتكون العودة إلى الفصحى بعد هذا التردى أمراً بعيد المنال.

إن ارتفاع الفصحى عن فهم العامة لا يحمل عقلاء الأمة العربية على النزول بالفصحى إلى أي مستوى

هابط، بل الحكمة تدعو إلى الارتفاع بالسواد الأعظم إلى مستواها.

والعامية في بلادنا يفقونها بسهولة إذا أصغوا إلى الكلام الفصيح، وبخاصة القرآن الكريم.

إن تشجيع العامية - ولو بنية حسنة - يساهم في توسيع الهوة بين العامية والفصحى على المدى البعيد، ويدفع بالأمة إلى مزيد من غربة الفصحى، وضياع العلم.

واعتماد اللهجة المحلية المحدودة يجعل المتكلم بها سجين المحيط الذي تُداول فيه هذه اللهجة.

(والداعية إذا تكلم بالعامية - مع مضمون جيد - فإنه يحقق الانتشار والشهرة داخل قطره في صفوف من لا يعرف الفصحى أو لا يحبها، لكنه يحكم على دعوته بالموت خارج حدود بلده، وفي صفوف من يكره العامية من المثقفين والمتعلمين.



ونحن الآن في عصر التواصل المدهش الذي ألغى الحدود الجغرافية، وقرب المسافات البعيدة، فكيف نطالب الدعاة- في مثل هذا العصر- بالتقوع داخل اللهجات المحلية؟! (١).

إن التنازل سيل منحدر لا يوقفه شيء، ومطاوعة أهواء بعض الناس سوف يُفضي إلى تنازلات تالية تزيد من فصول مأساتنا اللغوية الحاضرة، وتنتهي بمزيد من الضياع والتغرب اللغوي:

- فالיום نتقبل الكتابة والخطابة بالعامية لتسهيل الأمر على العوام.

- وغداً يأتي من يقول: إن الفصحى صعبة على طلبة المدارس، فلندرسهم بالعامية.

(١) من كلام الدكتور البشير عصام المراكشي في مقال له على الشبكة العنكبوتية حول استعمال العامية في الدعوة.



- واليوم يقال: سنقتصر على العوام في الدعوة بالعامية.

- وغداً تصبح العامية لغة الدعوة مطلقاً حتى مع المثقفين.

- وبعد غدٍ تصبح لغةً تدريس العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وفكر^(١).

بل قد رأينا وسمعنا من يُدرّس النحو بالعامية
المتبذلة!

ولقد سمعت الدكتور حسام شاكر المنسّق الإعلامي بجامعة الأزهر يذكر أن طلاب العلم الأعاجم بالأزهر اشتكوا كثيراً من أنهم - لكونهم لا يحسنون إلا الفصحى - لا يستطيعون فهم كلام كثير من المحاضرين الذين يحاضر ونهم بالعامية، ولطالما طالبوا بلفت نظر هؤلاء

(١) من كلام الدكتور البشير عصام المراكشي.



الأساتذة إلى تحري النطق بالعربية حتى يستفيدوا ويفهموا، ولما لم يجدوا آذاناً صاغية لشكواهم جمعوا قاموساً أسموه «كيف تتكلم العامية؟»، وتداولوه بينهم؛ كي يحلوا مشكلتهم.

إن الاحتجاج بالتقريب والتيسير على الناس حجة داحضة، ونظرة جزئية ضيقة، تتجاهل وتعامى عواقب التبادي في اعتماد العامية، التي تحقق الانتشار من جهة، والانحسار من جهة أخرى.

وكم أنس العوام للكلام الفصيح وفهموه وارتاحوا له، وحفظوا منه الشيء بعد الشيء عن طريق الخطباء المتمكنين، ومن خلال نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة، والأدعية المأثورة، ونصوص العلماء. وما أكثر العوام من كبار السن الأميين الذين تأثروا بالخطباء، وخالطوا طلبة العلم، وكثر سماعهم لكلام العلماء،

فاستحضروا النصوص، وأحسنوا فهمها، ولو خاطبوهم بالعامية لما حصلوا هذا الخير.

وهل ينكر أحد تأثير خطب الشيخ عبدالحميد كشك رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى الْعَوَامِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؟! وما كانت إلا بالفصحى النقية، حتى قيل: إنه لم يلحن في خطبة قط.

وما أكثر الدعاة إلى الله في عصرنا ممن انتشرت دروسهم وخطبهم ومؤلفاتهم في العالم الناطق بالعربية، وهم لا يستعملون العامية إلا نادراً!



العامية يفهمون الفصحى



إن عامة الناس يفهمون الفصحى، ويتذوقونها، على خلاف ما يدعيه خصومها، ولا تكون غريبة على أفهامهم إلا إذا تقعر المتكلم، واستخدم ألفاظاً غريبة.

يقول الدكتور السيد رزق الطويل رَحِمَهُ اللهُ:

(وجمهرة المتكلمين بالعامية من أبناء العرب يفهمون الفصحى في يسر، ويستمعون للقرآن الكريم، فلا يجدون عسراً ولا عنتاً في إدراك معانيه، وهو في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة؛ والجهود التي بذلها أصحاب الأهواء لدعم العامية لم تدعمها، وإنما كشفت عيوبها، وأبانت عن عجزها وقصورها، بدليل أنه لما استطاع دعاة العامية في فترة من الزمن التسلل إلى التعليم الابتدائي في مصر،

وظهر كتاب: شرشر وفلفل، والبط يأكل فت، والوز يأكل رز، تعرضت لحملة نقد شديدة، ورفض الناس - حتى العامة - هذا الاتجاه، ورد كيد أصحابه إلى نحورهم، وهذه هي بعض مظاهر القصور والعجز في العامية^(١).

وينقل الدكتور محمد حسن عبدالعزيز عن أمين فكري أن: (المسافة بين العامية والفصيحة ليست كبيرة، فالعامية لم تبعد عن الفصحح بما تصير به لغة مستقلة، فإن المواد هي المواد الأصلية بعينها إلا ما زاد، وهو قليل لا يُلْتَفَت إليه في تكون اللغات... وقد عَرَض على المفردات تحريف وتغييرٌ بنقص أو زيادة لم يُخَف بها أصل اللفظ.

ثم يضيف احتجاجاً آخر لتفضيله الفصيحة، بقوله: فالتحريف وفساد التركيب في لغة العامة لم يذهب بهم عن فهم الصحيح بالمرّة، بل هم يفهمون منه ما اتفق مع ألفاظهم في المادة، وإنما يعمى عليهم فهمُ الغريب.

(١) «اللسان العربي والإسلام» (ص ١٤٠).



وثقافة العامة الدينية تتيح لهم ذلك، فهم يحفظون شيئاً من القرآن الكريم يتلونونه في صلواتهم، وشيئاً من الحديث... ثم هم في كل جمعة يسمعون الخطبة باللغة الفصيحة... ويفهمون ذلك^(١).

وينقل عن الشيخ محمد شريف سليم قوله: (إن العامة لا يصعب عليهم أن يفهموا الفصحى، فالعامة تفهم الجرائد وهي مكتوبة بالعربية، وتفهم المكاتبات الرسمية وهي مدونة بالعربية، وتفهم ما يلقيه عليهم العلماء بالعربية من تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والمواعظ الأدبية، كل هذا يدلنا دلالة ظاهرة على أنه من السهل جداً على العامة الانتقال من العامية إلى أصلها العربي)^(٢).

نحن لا ننكر ضرورة تجديد الخطاب الديني، والإبداع في أساليب التواصل مع الناس، لكن ذلك لا ينحصر في

«مستقبل اللغة العربية» (ص ٦٤).

٢٠ نفسه (ص ٦٧).



مخاطبتهم بالعامية؛ إذ إن «في أساليب اللسان العربي
الفصيح مراتب متفاوتة بين علمي ووعظي وفكري،
وسهلٍ سلسٍ كأنسياب المياه في الغدران الرقراقة، وصعب
خشنٍ كتقطع جلاميد الصخر، وفصيحٍ عَصِيٍّ على غير
الجهابذة، وفصيحٍ متداولٍ لا يجهره أحد»^(١).

(١) من كلام الدكتور البشير عصام المراكشي.



يا نعايا^(١) الفصحى!



أعرض فيما يلي نماذج تطبيقية من كتابات أنصار
العامية خصوم العربية؛ لترى بعينك الابتذال والانحطاط
والانتكاس الذي يدعوننا إليه «المبشرون» بالعامية:

١ - قال الأستاذ الدكتور السيد رزق الطويل رَحِمَهُ اللهُ:
(إني أشعر بقدر كبير من الأسى وأنا أقرأ بعض مذكرات
شيخ الأمناء أمين الخولي، وهو يتخذ منهجاً غريباً يعده
تجديداً في ميدان البلاغة والأدب، فيقدم القرآن وتفسيره
بعبارات عامية مبتذلة، يقول في شرح قوله تعالى:

(١) يقال: نعى الميت يُنْعَاهُ نَعْيًا وَنَعِيًّا، إذا أذاع موته، وأخبر به، وإذا ندبه، وفي
الحديث: «يا نعايا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة
الخفية»، والمعنى: يا نعايا العرب جئنا فهذا وقتكن وزمانكن، يريد أن
العرب قد هلكت، وانظر: «النهاية» لابن الأثير (٨٦/٥).



﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ ﴾ (٢٣) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿ [فاطر: ٢٢، ٢٣] ،

(إنت مش حتسمع اللي في القبور، والحقيقة أنه مش قدام أموات، وإنما قدام ناس ألواح وبهايم، والقرآن بيقول له: إنك حريص قوي على هدايتهم، الأحسن أنك ما تحرصش كثير على هذه الهداية، قال ذلك، لأنه شاف أنه لفرط عنايته بأن يهتدي هؤلاء القوم أن يخرج عن حده فينسى أن مهمته التبليغ، هو عمال يحرق في دمه مع اناس دول، ووفائه لمهمته هو الذي يحمله على الإسراف في الإلحاح، ويهز في هذه الألواح، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأي ثمن، فقال له الله: يا أخي إنت حارق نفسك ليه...^(١) .

عجبًا يا شيخ الأمناء!! عفا الله عنك، ولعلها منك محاولة لتفهم طلابك في كلية الآداب الذين أحسست

(١) هذا النص من كتاب «الشعبوية في الأدب العربي الحديث» لأنور الجندي. ويذكر المؤلف أن الكراسة التي بها هذه المذكرات حصل عليها الشيخ علي العماري من بعض طلبة كلية الآداب.



فيهم عجمة، ولم يكن هذا في خطتك!!!، لكنني أقول: أهذا هو التجديد في البلاغة؟! لقد وضعت يدك مع الأيدي المشبوهة التي حملت إثم الدعوة إلى العامية والابتذال، لتقطع أواصر هذه الأمة!! إنها استهانة بالغة بالكتاب العزيز، وبأسلوبه الفصيح، واستهانة بطلاب العلم الذين جلسوا أمامك ليسمعوا منك هذا الكلام.

ما أتصور الشيخ أمين رَحْمَةُ اللَّهِ فِي مقالته تلك إلا أنه جالس على «مصطبة» جلسة مُغَيَّب، يجر أنفاسًا عميقة من نرجيلته، يفضي بين الحين والحين بهذه الكلمات؛ على أنك فيما قلت وضعت العامية في موضعها الصحيح، وأثبتت من حيث تريد أو لا تريد عِيَّها وعجزها وقصورها؛ لأنك في شرح نصف سطر من كتاب الله قدمت نحو عشرة سطور، تلف وتدور، تحاول أن تستخرج المعاني التي توحى بها الكلمات الفصيحة، فذكرت عبارات عامية ومبتذلة كثيرة.



عفا الله عنك مرة أخرى، ونرجو ألا يكون وراء ما قلت قصد سوء؛ لأن العبارات التي قلت لا تطاق^(١).

٢- كان (يعقوب صنوع)^(٢) أول صحافي استجاب للدعوة إلى الكتابة بالعامية، حيث أعاد إصدار صحيفته (أبو نضارة) في باريس، بتاريخ ٢١ من مارس ١٨٧٩م، باللغة العامية، وقال في افتتاحية العدد الصادر في ١٧ من يوليو سنة ١٨٨٠ بالعامية المصرية: (ولما بلغني بأن صدر أمر من ناظر الخارجية بقفش وكسر الصفارة الساعية في استحصال التمدن والحرية، يا رب نور عقلي وفهمي، وانصري على الواد مصطفى فهمي، اللي أمر بتعطيل صفارتي البهية، فتأسفوا أبناء مصر أجمعين، وظنوا أن علينا انتصر الظالمين، فشرَّ والله العظيم) إلى آخر هذا السخف

(١) «اللسان العربي والإسلام» (ص ١٢٠، ١٢١).

(٢) يهودي مصري وُلد سنة ١٨٣٩م، ومات في باريس سنة ١٩١٢م، أصدر صحيفته (أبو نضارة) سنة ١٢٩٥هـ، وكانت بالعربية الفصحى، ثم أغلقها الخديوي إسماعيل لما فيها من نقد مُرّ لاذع.



المتكلف الذي يثير الاشمئزاز، وأؤكد أنه لو قرأ عوام مصر هذا الكلام لن يستسيغوه، ولن يفهموه، لكنه التضليل. ثم يكتب في العدد الصادر في ٢٦ من مارس سنة ١٨٨٢م الافتتاحية بالعامية الشامية، يقول: شو هل حكي ياخيو، ده مو كلام محرر بصير، فرنجي جنابك، حاشا، بقى شو هل ذم في الأمير... الخ^(١).

٣- وكتب سعيد عقل في مقدمته لديوان ميشيل طراد (جلنار) في الزجل، مثلاً مما كتبوه بالعامية: (أول ما يبجابهك الجمال يأنو بيغيرك صوب الزيادي وهو عميلزك... نشوء كل معرفة فيك بترافقو لزي، بل اللزي البترافق المعرفة البيعملها الجمال بتفرق عن غيرها يأنو فيها شيء من التخدير، من الحلم، من الهز، كأن الكون اللانت فيه مرجوحا)^(٢).

(١) تحقيق في صحيفة الشرق الأوسط، العدد الصادر في ١٦ / ١١ / ١٩٨٣ تحت عنوان: دعاة العامية الذين يطالبون بالتخلي عن الفصحى. وانظر: «اللسان العربي والإسلام» (ص ٦٢، ٦٣).

(٢) «العربية في مواجهة المخاطر» للدكتور عبدالكريم الأشتر (ص ٦٠).



وحاول أخي القارئ- من غير الشمال المغربي- أن

تفهم هذا الحوار:

١- قال شحال من ساع؟

٢- قال ل تسعود

٣- وياش؟

٤- قال ل تسعود ساكت

كما وردت في «معجم لهجة شمال المغرب» (ص ١٥١).

ومعناها:

١- قال له: كم الساعة؟

٢- قال: التاسعة.

٣- قال له: وأي شيء؟

٤- قال: التاسعة تمامًا^(١).

(١) «الدعوة إلى العامية: المسار والأهداف» للدكتور مصطفى بن حمزة



الفصحى تقهر أنصار العامية



من آيات الله تعالى الباهرة أن الفصحى الغالبة القاهرة
أجبرت خصومها على أن يخضعوا لسلطانها، وأعجزتهم
-بسحرها- عن التحرر من مجالها وجاذبيتها.

فالدعاة إلى الكتابة بالعامية كتبوا دعاوهم الفاسدة
بالفصحى، ولو كُلفوا أن يصوغوا دعايتهم بالعامية لما
استطاعوا؛ لأنها غير مؤهلة للتعبير الرشيق، والأسلوب
العربي الحكيم الذي يتذوقه أقل الناس حظاً من التعليم.

لقد أفلست العامية وافتُضحت حين حاول أنصارها
امتلاك ناصية التعبير الكتابي في الثقافة والفكر، فسحقتها
الفصحى، وأظهرت التجربة العملية الفشل الذريع لمن

أقسموا^(١) أن يكتبوا بالعامية ولا يرجعوا عنها، ثم لم يلبثوا أن هجروها وسعوا حثيثاً إلى الفصحى السهلة الميسرة، وآثروا خيانة العهد، والحث في القسم، فقرروا الاستسلام أمام الفصحى.

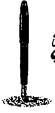
يقول الدكتور أحمد درويش وكيل كلية دار العلوم بالقاهرة: (واللافت للنظر أن معظم هؤلاء الذين يدعون إلى هجر الكتابة العربية لصالح «الكتابة العامية» يعبرون عن أفكارهم تلك بلغة عربية صحيحة غالباً، ولا يستطيعون أن يعبروا عن آرائهم أو يدافعوا عنها باللغة العامية، والتجارب القليلة التي حدثت لكتابة

(١) الإشارة هنا إلى لويس عوض، وأحمد الشايب. ومن العجيب أن المنصّر الإنكليزي «وليام ويلكوكس» وهو من أشد المتحمسين الداعين إلى هجر الكتابة بالفصحى والتحول عنها إلى العامية، كان - وهو الأعجمي - يخاطب المصريين باللغة الفصحى بيسر وسهولة، فكيف يستكثر عليهم أن يفهموها وهي لغتهم؟!



فكرة ما باللغة العامية، لم تحقق كثيراً من النجاح مثلما حدث لكتّاب مرموقين مثل لويس عوض ومصطفى صفوان وغيرهما ممن ظلت كتاباتهم بالعامية أقل ما كتبوه تألقاً ونجاحاً...^(١).

(١) «إنقاذ اللغة إنقاذ للهوية» (ص ١٣١).



الجل هو ضبط العَلاقة بين الفصحى والعامية



عانت السياسة التعليمية العربية في شؤون اللغة منذ أواخر القرن التاسع عشر - ولا تزال تعاني - كثيرًا من المعوقات وعدم الاستقرار، بسبب الثنائية اللغوية: الفصحى، واللهجات التي جثمت فوق صدر العالم العربي منذ عهد بعيد. سيطرت اللهجة المحلية على السنة الناس في حياتهم العامة، وظلت الفصحى متأبئةً على الجمهرة الغالبة من الشعب، لا تكاد تُستعمل في غير الكتابة فحسب.

وقد كان الاهتمام عبر تاريخ العرب موجهًا إلى الفصحى لغة الدين، والثقافة، والفكر الرفيع، وبذلك حُفِظت اللغة في محيطها العلمي والأدبي، وعاشت إلى



جوارها في البيئات العربية ألسنة ولهجات عربية يستعملها الناس في حياتهم اليومية، ويؤلفون بها ألواناً من الأدب الشعبي .

ولا شك أن التوحد حول الفصحى كتابة وكلاماً هو الحل الأمثل للثنائية اللغوية، ولكن العامية المحكية بحكم الواقع هي لغة الحياة اليومية، وعلى أساس مبدأ «سدّ دوا»، وقاربوا^١ ينبغي أن يكون الهدف هو تنظيم العلاقة بين العامية والفصحى، وليس إعدام اللغة المحكية التي هي ظاهرة في كل اللغات، والاختلاف بين اللهجات العربية ظاهرة طبيعية ما دام في حدوده المعتدلة المألوفة التي تميز الشعوب بعضها من بعض.

وقد دامت هذه الظاهرة قروناً طويلاً، ولم يهدد ذلك سلامة اللغة؛ فمنذ القرون الأولى كان الناس يميزون بين لهجة العراق، وأهل الشام، وأهل مصر، وأهل المغرب،

^١ «مستقبل اللغة العربية» للدكتور محمد حسن عبدالعزيز (ص ٥٧).



وأهل البادية، ولكن بقيت الفصحى لغة الكتابة والعلم والثقافة.

ومن القواعد المقررة عند علماء اللغة: أنه يستحيل على مجموعة بشرية تعيش في مساحة أرضية شاسعة، أن تصطنع في حديثها اليومي لغة موحدة، تخلو من اختلاف صوتي، أو دلالي، أو اختلاف في البنية أو التراكيب^(١).

فلتوضع كل واحدة من الفصحى والعامية في إطارها الصحيح، بحيث لا تطغى العامية على الفصحى، ولا تنازعها في مكانتها السيادية في حياتنا وثقافتنا.

(١) «فصول في فقه العربية» لرمضان عبدالنواب (ص ٤١٤).



وربما صَحَّتْ الأَجْسَادُ بِالْعِلْلِ



إن الجراثيم يغيرها ضعف جهاز المناعة في الجسم،
فتزدهر، وتنتعش، وتهاجمه.

ومن سُنَّةِ الله تعالى أيضًا أن الميكروبات الغازية
تستحث جهاز المناعة وتحفزه ليقاومها ويقضي عليها.

فعسى - إعمالاً لِسُنَّةِ التَّدَافِعِ - أن تكون الحملة على لغة
الضاد سبباً في أن يُعَامَلَ أصحابها بنقيض قصدهم، فينشأ
جيل من طلاب العلم النابغين يتصدون لهذه الحملات
ويعيدون إلى «هُويتنا الناطقة» اعتبارها ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ
رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الذثر: ٣١]، ويستكشفون كنوزها وأسرارها،
ويتتبعون دقائقها وفضائلها، ويجددون شبابها وحيويتها،
قال المتنبّي:

قصدوا هَدَمَ سورها فبنَّوهُ

وَأَتَوْا كِي يُقْصِرُوهُ فَطَالَا



وَاسْتَجْرُوا مَكَائِدَ الْحَرْبِ حَتَّى

تَرْكُوهَا لَهَا عَلَيْهِمْ وَيَا لَا

رُبَّ أَمْرِ آتَاكَ لَا تَحْمَدُ الْفَعْلَ

سَالٌ فِيهِ وَتَحْمَدُ الْأَفْعَالَ

إن من الملاحظات الواضحة أمام من يتتبع سير الأحداث، ويرقب عن كثب معارك الفصحى والعامية بكل صورها، يجد أنه عندما تشتد الحملة ضد اللغة والتراث في أي عصر توأكبها معركة مضادة تتصدى لها وجهًا لوجه، كحركة إحياء التراث، أو ظهور مفكرين أصلاء، أو شعراء مبرزين على صعيد الفصحى^(١).

وما الشاعر العظيم (محمود سامي البارودي) منا ببعيد، فقد رَدَّ هذا الشاعر الفحل الرُّوحَ لشعر العربية، وأسمع الناس في أواخر القرن التاسع عشر لغة حية، مؤثرة، رأوا فيها سمعوا النابغة، وعنتره، والكميت،

(١) انظر: «اللسان العربي والإسلام» د. السيد رزق الطويل (ص ٩٧).



وأبا تمام، والمتنبي، يكلمونهم في أحداث عصرهم^(١).
 قبل البارودي رَجَمَهُ اللهُ كان الشعر العربي قد هوى
 إلى درك من الانحلال جعله نسيًا منسيًا، وإذا بالبارودي
 يروض القول على مثال الأقدمين، ويبعث الشعر العربي
 واللغة العربية لفظًا ومعنى من مرقدتهما، ويرد إليهما حياة
 ذَوَتْ وذبلت منذ قرون متعاقبة.

«لم يتعلم البارودي النحو والصرف والعروض
 والقوافي، لكنه قال الشعر طوعًا لموهبته، بعد أن قرأ الشعراء
 الأولين، وحفظ عنهم كل ما اطمأن إليه من أقوالهم، وأنت
 لذلك تستطيع أن تقول إنه عاصرهم وعاش معهم^(٢)، فلم
 يكن أبناء زمانه من المصريين يعرفون اللغة العربية، وإنما

نفسه (ص ٥٢).

لقد اعتمد البارودي في اكتساب لغته على أسلوب «الغمر» أو «الانغمار» في
 أعماق اللغة العربية الأصيلة، ولم يكتسبها اصطناعًا وتكلفًا، وهذا الانغمار
 (Immersion) هو الأسلوب نفسه الذي به يكتسب الطفل لغته الأم من
 بيئته، وتحاول أن تحاكيه المناهج الحديثة في تعليم اللغات، كما هي فكرة
 برنامج «حجر رشيد» أو (Rosetta stone) العالمي.



كانوا يتحدثون بلغة أخرى هي العامية، فحياة البارودي المتصلة باللغة العربية كانت بين الشعراء الجاهليين وشعراء العصرين الأموي والعباسي، من ثمَّ صارت لغتهم لغته، وصارت سليقة له كما كانت سليقة لهم، فكان يقولها ويتصرّف فيها كما كانوا يقولونها ويتصرّفون فيها»^(١).

ولقد انتقد بعض هزلي الهمة ذلك الشاعر الملمه أشد النقد؛ لأنه عمل على إحياء عهد الشعر العربي الجزل، ونفخ فيه روحاً تنشره من الجدث الذي انطوى عليه القرون الطوال، فردَّ على ذلك النقد ردّاً بسيطاً، لكنه أفحم به هؤلاء المنتقدين، فقال:

تكلمتُ كالماضين قبلي بما جرتُ

به عادةُ الإنسان أن يتكلما

فلا يعتمدني بالإساءة غافلٌ

فلا بد لابن الأيِّك أن يترنماً^(٢)

(١) مقدمة «ديوان البارودي» للأديب محمد حسين هيكل (ص ٢٦).

(٢) نفسه (ص ٩).



كتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية وأثارها في مصر»



لقد كُتِبَ الكثير من الدراسات حول منشأ الدعوة إلى العامية في الشرق العربي، لكن هذا الكتاب (الرائد) كان أهمها على الإطلاق، وهو أطروحة علمية قيّمة للدكتورة (نفوسة زكريا سعيد)، قدمته سنة ١٩٦٤م لنيل درجة الدكتوراة في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ونالت عنه جائزة التفوق في الدكتوراة في عهد (جمال عبدالناصر).

والمؤلفة هي الأديبة النابغة المبدعة (المتفوقة دائماً) والتي كانت من صفوة الباحثين، فنالت حظوة عند أساتذتها، لاسيما أستاذها الكبير الدكتور (محمد محمد حسين) رَحِمَهُ اللهُ، الذي أشرف على رسالتها المذكورة.



لقد كان هذا الإنجاز العلمي من المصادقية،
والموضوعية، والإتقان، والاستيعاب، والتقضي، والرصانة
على المستوى الذي جعله بحثاً علمياً متفرداً، ومَعِيناً
استقى منه كل من تناول الموضوع بعده تقريباً، وبه حفرت
الدكتورة نفوسة -رحمها الله وجزاها عن اللسان العربي
خييراً- لنفسها مكاناً بين نخبة الباحثين، وطبعت بصمة
عميقة في تاريخ الدفاع عن اللسان العربي، جديرة بأن
تستمطر لها الدعوات بالرحمة والمغفرة وحسن الثواب.

وشرفت الدكتورة نفوسة رَحِمَهَا اللهُ بِأَسْنَى شَرَفِ يَنَالِهِ
باحث حين خلع عليها وعلى بحثها الماتع شيخُ العربية
وفارس فرسان الدفاع عنها في عصرنا العلامة أبو فهر
محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ أَعْلَى قِلَادَةِ يَطْمَحُ إِلَيْهَا بَاحِثٌ، وَذَلِكَ
حين أفاض قلمه السيال في مدحها والثناء على بحثها
المذكور، وبلغ تقديره إياهما الذروة حين قال: «ولا أظنني



قرأت منذ سنوات طوال كتابًا يتناول المسائل العامة في حياتنا الحديثة، بذل فيه صاحبه من الوقت والجهد والأناة ما بذلتِ الدكتورة نفوسة في كتابها هذا، ولا أظنني قرأت أيضًا في هذا الدهر كتابًا، ينبغي لكل عربي وكل مسلم أن يقرأه من ألفه إلى يائه، يضارع هذا الكتاب. وحسبها أنها استطاعت أن تجلّو للناس صورة صحيحة صادقة مؤيدة بالأسانيد، بلا تزويد ولا كذب ولا ادّعاء، عن أكبر معركة تدور في العالم العربي والإسلامي، وهي معركة البناء أو الهدم، معركة الحياة أو الموت، معركة الحرية أو الاستعباد، معركة وحدة العرب والمسلمين بلغة عربية هي الفصحى، أو تفرّق العرب والمسلمين أشتاتًا بلغات متنابذة، هي العامة.

ولو كان لي من الأمر شيء؛ لأمرت أن يُطبع هذا الكتاب ليكون في يد كل شاب وشابة، وكل رجل



وامرأة، ويكون له مختصر ميسر^(١) لكل من مكّنه الله من
القراءة^(٢). اهـ.
ولا مزيد...

* فإن القول ما قالت حذام *

محمد عبدالرحمن المنصور

شعر الإسكندرية في الاثنين
التاسع عشر من المحرم ١٤٣٩

(١) وقد وفق الله تعالى أختانا الفاضل الدكتور حمادة أحمد إسماعيل إلى وفاء هذا
الذّين، وتحقيق هذا الأمل، فاختصر كتاب الدكتورورة نفوسة رَحِمَهُ اللهُ في نصف
حجمه تقريباً، وقَدَّم له أستاذ الجيل العالم الرباني الأستاذ الدكتور مصطفى
حلومي - حفظه الله -، وطبعته (دار الأمل) بالإسكندرية في ثوب قشيب،
فجزى الله الدكتور حمادة خير الجزاء، وعافاه من كل سوء وبلاء، وشفاه
شفاء تاماً عامّاً لا يُغادر سَقَمًا، وأحسن لنا وله العاقبة في الدنيا والآخرة، إنه
أقرب من دُعي، وأجود من أعطى، وأكرم من سُئل.
(٢) «أباطيل وأسفار» (ص ١٢٥، ١٢٦).



الفهرس

- اندهاش العالم الأوروي من أثر القرآن العربي في
 ٣..... توحيد مسلمي العالم
 غاية الأعداء إحداث القطيعة بين المسلمين وبين
 ٤..... القرآن المجيد
 من مظاهر الكيد للفصحى..... ٦
 الأدب الشعبي وسيلة لإنعاش العامية..... ٧
 أخطر محاور الكيد جعل العامية لغة أدبية بدلاً من
 ٨..... الفصيحة
 الدعوة إلى العامية زائفة المحتوى، وأهدافها معادية..... ٨
 ثنائية العامية والفصحى من أكبر المشاكل في
 ١٠..... تاريخنا الحديث
 بقيت العامية منذ القدم محصورة في بيئات التخاطب
 ١١..... الضيقة



- مقارنة بين الفصحى والعامية..... ١٣
- ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾... ٢٢
- ثلاثة الأثافي، ومصيبة الدهر..... ٢٦
- العامية يفهمون الفصحى..... ٣٩
- يا نعايا الفصحى!..... ٤٣
- الفصحى تقهر أنصار العامية..... ٤٩
- الحل هو ضبط العلاقة بين الفصحى والعامية..... ٥٢
- «وربما صحَّتِ الأجسادُ بالعللِ»..... ٥٥
- في (البارودي) تجسَّدَ الأمل في إحياء الشعر
- العربي الجزل..... ٥٦
- أهمية كتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها
- في مصر» للدكتورة نفوسة زكريا..... ٥٩